أمتنا العربية بين الإسلامية والعلمانية

للدكتور رشدي نكاس

دون الخوض في تفاصيل تاريخية او خطابية او هامشية ، قد تجد مكانا لها في عرض وصفي ، او سردي للاحداث او لمواقف مفتعلة ، او دفاع عن آراء مبيتة ، سنحاول طرح اشكالية أمتنا العربية في اطار محدد ما أمكن وهو « أمتنا العربية اسلامية أم علمانية ؟؟؟ » اذ ليس الهدف من التساءل هو وجود « امة عربية » وانما حول ماهيتها ، وانتمائها ، وكيانها ، في القرن العشرين .

وهذا يدفعنا بالضرورة وتحاشيا لكل معرفة جزافية ، او تقنين انشائي ، او انطباع تذوقي الى مسيرة هادئة ، تدور حول المفاهيم الثلاثة: العربي ، الاسلامي ، العلماني وهي المفاهيم المتصدرة ، ويتمركز حولها العرض ، لننتهي بتحديد واقع الاختيار كما هو كائن ، وفرضه التاريخ ، واملاه جوهر هذه الامة .

ولنبدأ بمن هو العربي انسان أمتنا المتمحورة حوله هذه الاختيارات؟ اذا ما احتكمنا في تعريفه وتقنينه للمجازفات فسوف تصل بنا في النهاية لدى المتفائلين المدعمين الى القول بأن كل ما هو عظيم ، معطاء ، فارس ، ابي ، فهو عربي ولو باسم ما كان في التاريخ . ولدى المتحفظين المفندين في هذا العصر ، الى ان العربي يرمز الى القطيعة والتمزق ، والتجزئة ، وربما الاستلاب والضياع في نهاية المطاف ، وربما فريق ثالث بمنطق الواقع ايديولوجيا فيصور لنا العربي ، صاحب الهموم ، وحامل اثقال التراث ، والمتكلم بالضاد ، والقابع فوق ارضه باصرار ، يدافع عن ما تبقى له ، ويبكي على ما فقد منه ، يجمع بين الروحية كدعامة تراثية ، ومتطلع للعلمانية ، يتأصل ويتعصرن ، يتقادم ويتقدم ، يتغنى بالشعر ويقود الصواريخ . هو موسوعي يعرف كل شيء ، ولكنه يتساءل هل عرف

ذاته ؟ ويظل موكب النقاش ومسيرة الجدل حول هذا العربي الذي لا يتغنى الا بالاتحاد والوحدة ، ولكن اعماله ربما تتنكر لها وتنكرها ، هذا العربي المعجز في قدارته وانتصاراته ، كما هو محزن في نكباته وهزائمه.

لندع هذا الجانب الحماسي يعبر طريقه بانفعالاته ، وتحفظاته ، وانطباعاته غير منكرين عليه ، بالرغم من تنوع حججه وتباين مواقفه ، التقاءه في قاسم مشترك وهو الغيرة على هذا الانسان العربي ، انساننا ، والحرص على حرق المراحل واختزال الازمنة التاريخية المتوعكة الدائرة المتراجعة لامته ، فله من هذه الزاوية كامل المشروعية ليعبر ، مهما كانت المجازفة ، لنقف مع العربي قليلا ولنستنطقه بهدوء على الاقل عبر دوراته التاريخية لا كمجرد تسلسل واسترسال لتاريخ المؤرخين ، او تصحيح لوقائعه التاريخية باسم علمية التاريخ ، وانما متجاوزين ذلك الى مستوى التعليل والهوية لهذه الدورات في اطار فلسفة التاريخ ، بغية تحديد مدلول ومضمون انساننا العربي .

العربي عرف دورات تاريخية رئيسية ثلاث ، بلورت مدلوله ومضمونه في كل دورة ، ولا يمكن التحدث عنه علميا في غيبتها ، فهي المجسدة له بقدر ما هو مجسد لها . هذه الدورات هي على التوالي دورة سلالية عشائرية قبلية ، بعصبيتها ونعراتها ثم دورة ثقافية انتقالية تهدف اعادة صياغته بقيمها ومبادئها ، الى دورة حضارية برسالتها الروحية والانسانية. من العربي صاحب السلالة الى العربي صاحب الثقافة في دورته الانتقالية بين التطلع والارتداد ، الى العربي صاحب الرسالة الحضارية الخالدة ، دورات تتعاقب وتتراجع ، على ضوئها يشرق او يتقلص يتسع او يضيق مدلوله ومضمونه .

في الدورة السلالية ، وهي الدورة المبدئية المكونة لمقومات ذاتية تمركز مضمون العربي حول العشيرة ، عربي العشيرة . من عشيرة الاقربين سلالة العرق والنسب الى عشيرة الحي والديار البيئية بما في ذلك من افخاذ وبطون وعمائر ، تباينت في ازدلافها لتشكل قبائل بحثا عن الكلأ والماء وضروريات الحياة ، او طلبا في الاستجارة ، او تصديا لحرب، او قياما بغزو ... وخصائص العربي المحددة لمضمونه في هذه الدورة تكمن في سيادة الحمية والنعرة والعصبية والحماسات في مختلف مظاهرها، والتغني بأمجاد الذات العشائرية والقبلية ، وتحكم فاعلية الكلمة وبيانها ،

وقدرة السيف وقونه ، (اهمية الشاعر والفارس) في تحديد العلاقات وتحريكها ايجابيا او سلبيا ...

ولقد حاول بعض الباحثين في الانثربولوجيا العربية عشية ظهور الاسلام وما سبقه انطلاقا من دراسات « روبيرتسن سميث » وغيره ، ان يضيف الى نموذج عشيرة الاقربين للسلالة العرقية ، وعشيرة الديار والحي للسلالة البيئية ، نموذجا ثالثا وهو العشيرة الطوطمية كسلالة دونية ، لا عرقية ولا بيئية ، لا تنتسب الى عرق او الى بيئة تعيش فيها ، كوادي او جبل او هضبة ، او ديار ، او حي ، وانما الى طوطم قد يكون ناتا او حيوانا او جمادا بصفة عامة ... ونعتقد ان هذا النوع من العشائر ، من الاولى الحاقه كقطاع متخلف لسلالة عرقية او بيئية ، باعتبار ان الانتساب نعتي لا حقيقي ، لان العربي ما اعتقد ابدا انه من سلالة الحيوانات او النباتات او الجماد وانما من باب الفخر والتحلي بصفاتهم ، فهو ينتسب نعتا الى صمود الجبل لا فعلا الى الجبل ، والى قوة الاسد لا الى الاسد ، والى صبر الجمل لا الى الجمل ، بل نذهب الى ابعد من ذلك وهو ان الاصنام والاوثان ما كان يعبدها في حد ذاتها وانما لتقربه الى الله زلفى بنص القرءان الكريم .

ومع تكثف الازدلاف بين القبائل لاسباب دينية او حربية او مناخية ، بما في ذلك البحث عن الكلأ والماء ، وبقية الضروريات للحياه تبلوره القرى وام القرى ، واتسعت سلالة البيئة اى الانتماء الى الديار والاحياء على حساب السلالة العرقية التي لم تختفي وانما احتفظت بخصائصها المميزة على مستوى التعصب والاستمرارية ، رغم تغلغها في السلالة البيئية ، بل حاولت ان تقاوم اى اذابة تفقدها هذه الخصائص ، ومن هنا كانت اهمية نسابة العرب ، وتأكيدهم لواقع التسلسل وشجرة النسب أ با عن جد .

فظل العربي في دورته السلالية (ولا نقول العنصرية الجنسية كما التبس لدى البعض لانه يصعب الدفاع عن نظرية جنسية عنصرية على مستوى الميز علميا نظرا لتداخل الاجناس البشرية عبر التاريخ ، فالعنصرية ما هي الا افراز لمطامع استعمارية وامبريالية للسيادة على الشعوب المستضعفة ، ولا يمكن بحال علميا قبول عنصر صافي الا في المجتمعات البدائية والمنغلقة والتي تتناسل فيما بينها ، وكثيرا ما تنتهي بالانقراض) عبر معتقداته وتقاليده وأعرافه وعاداته وفيا لذاته المتحورة حول العشيرة . من اجلها يحارب ، وبها يفخر ويفتخر ولتدعيمها ينجب ،

وبمحاسنها يتغنى ، نافرا من اي قيم أو مذ او مبـادىء لا تتم لحساب ذاتيته العشائرية ، ولا تتمشى مع ما ينتمي اليه . وهكـذا كان شأنـه وماهيته وكنهه حتى ظهور الاسلام ومبعث خاتم الانبياء ...

ومع ظهور الاسلام عرف العربـي دورة انتقاليـة ، دورة الصهـر والاستئناس لما هو ايجابي في داخله ينميه تحت رياده النبوة بالوحـي منيرا الطريق للعقل . وما هو سلبي يحاول حصره وحصـاره توطئـة لاذابته مرحليا ، او تحويله من عامل اعاقة الى حافـز دفـع لمسيرتـه التاريخية نحو آفاق أوسع وأشمل تعمم الانتماء اليه تحت راية الاسلام .

فلقد جاءت تعاليم السماء مخاطبة الانسان العربي ، ومخاطبة مـن خلاله ومن حوله الانسان ، في كل مكان وزمان لتتجاوز به دورة السلالـة الى دورة الرسالة ، مركزة على احداث تغيرات جذرية في ذاتـه اساسا قبل ان تقوم بتغيرات في محيطه ومجاله فأكدت الرسالة الخالدة على ان تغير النفس في حد ذاتها سابق لكل تغيير ، وان ذات غير واعية بما لديها لا يمكن أن تعي بما لدى الآخرين .

وكانت مسيرة الاسلام الكبرى لبناء الانسان العربي ليصبح نموذجـا كونيا لا عشائريا وفتحت المدرسة المحمدية الخالدة ابواب الدعوة لتشيد هذا النموذج الجديد ، واقبل الفوج الاول على دار الارقم ليكون النـواة وليؤهل لاجيال المعلنين بالتعاليم الربانية والمواجهين حتى فتح مكـة ، واكمل الله على لسان رسوله الاكرم (عليه السلام) الدين واتم نعمتـه ، وكمل بكماله وباتمام النعمة بناء النموذج للانسان الكوني المدعم برسالـة السماء ، في مختلف بقاع الارض ، ولكل ازمنتها الى يوم الدين ، وذلك من خلال العربي لا السلالي صاحب العشيرة ، ولكن الكوني صاحب الرسالة ، وقد اكد رسول الله (ص) على تعميم مفهوم العربي المتطلع حينئـذ الى الاشراق كونيا رفعا لكل التباس وتغميض بقوله : « ايها النـاس ان الرب واحد ، وليست العربية بأحدكم من اب أو أم ولكنها اللسان ، فمن تكلـم العربيـة فهـو عربـي » ...

ولكن هذه الدورة الانتقالية لم تعرف فقط نموذج العربي المنصهـر المستجيب قلبا وقالبا لدعوة الرسول (ص) الكونية ، والذي قرر حمل امانة الرسالة بقناعة واقتناع بلا تفريط ولا افراط ، وانما عرفـت نماذج

الرافض والمقاوم ، والمعترض ، والمتردد ، والمقنـــع ، والمتحفـــظ ، والمنافق ، ممن شكلوا السواقط الترسيبية للدور السابقة كما هو الحال في كل دورات التاريخ . لان تجاوز اصحاب رسول الله (ص) وجماعتـه المتفانية في حب الله ومرضاة نبيه امكانات الترسب ، ومكونات التقنـــع والتحجر ، فهناك فئات اخرى من المعاصرين لهذه الدوره الانتقالية صهر مظهرها ، وبقي جوهرها بخافياته ومبيتاته وحماسات الجاهلية ، ليشكـــل معيقا فوريا او نفعيا ، او وقتيا ، للانطلاق بالدورة الثالثة المشعة نحـــو آفاقها الحضارية بالفتوحات دورة العربي المتجاوز صاحـــب الرسالـــة الخالـــدة كونيـــا .

وشكلت حروب الردة ارضية المواجهة بين النماذج المتطلعـــة الى الامام والاخرى المشدودة الى الخلف ، بين الارتداد الى الدورة السلالية او الزحف الى الدورة الحضارية . اختيارات غائية ، دون شك ، لمصير امة تبحث عن الاشراق في الكون على اكتاف دعاتها وتحمـــل مقوماتهـــا الخالدة بمبادئها الاسلامية مندفعة الى الارتقاء ، وفي نفس الوقت تواجـه بكل حزم دموي ، حواجز ادعيائها من حملة الرواسب المجرورين بالانتكاس الـــى الـــوراء .

وقد كان ، وتجاوز العربي المؤمن المسلم الرائد محنـــة الاختيـــار بالانتصار ، بالانتصار على نفسه اولا لينتصر بعد ذلك في كل المعارك وعلى كل الساحات وفي كل المواجهات ، واختفى عربي الجاهلية في الاعمـــاق ليترسب في داخل الذات ، وليترك لعربي الرسالة المعبأ « بأركيتيـــب » سيطر على شعوره كما غطى « اللا شعور الجمعي » ونعني « بالاركيتيـــب النفسي » مستعيرين التعبير من « يونج » نموذجا سلفيا صالحا متجسدا في اللاشعور الجمعي كوجدان روحي ، نرمز الى تعبئته بصيحـــة « الله اكبر » ونلجأ اليه من الملمات والمواجهات الكبرى كرصيد وقدرة تعبوية تلقائية لدى الملايين وحينما يهتز هذا اللاشعور الجمعي الوجداني الروحي يهتز من فوقه الشعور وتطفو من تحته رواسب الجاهلية فتحول الازمات الى انتكاسات ، وترتد احباطيا في شكل لا واعي ومشتت لتسقـــط على الآخرين خطيئة الذات وتلقي عليهم بفائض الادانة .

وهكذا عرف تاريخنا الطويل عربي الانتصار كما عرف عربي الانتكاس، عربي الانتصار عربي الاسلام اتسع مدلوله في دورته الحضارية ليغطـــي

الفارسي والرومي والحبشي الى جانب القرشي ، من سلمان الفارسي الى صهيب الرومي الى بلال الحبشي الى جانب علي الهاشمي القرشي ، عربي حضاري كل يتمنى ان ينتسب اليه ، ويحمل اسمه من خـلال صاحب رسالته الخالدة للكون ، وكل يفخر بالانتماء الى ارضه ، وحضارته وعمرانه، ومدنه المشعة فلسفة وعلما وادبا وفنا وجوامعه ومجالسه وحتى غزواته ، اما عربي النكسات والرواسب والانتكاس فقد ضاق وتقلص مجاله فضاق وتقلص بالضرورة مضمونه ومدلوله ، فانطوى في شعوبية ذاته يبترها في احباطه واسقاطه جزئية تلو اخرى وتنكر في بداوته يقنع فيها خلفياتـه ، مفتعلا للانتصارات في هزائمه ، مستبعدا لكل ادانة مع ان الادانة منـه واليه ، ومن ثم « فابن خلدون » فيلسوف التاريخ الناضج لم يك جزافيا فى حكمه ، بل اقر معللا دورة العربي المنتكس في عصره متجهـا بهـا الى التعميم حسب معطياته الفكرية المحددة . وان كنا نرى على ضوء حركة التاريخ نموذجا مزدوجا للعربي في داخل انسان واحد ، بمعنى عربيين في داخل عربي واحد ، لا يتصارعا حسب المفهوم الطبقي الغربـي فحسب ، وانما يتصارعا نفسيا بين جذب الكبت والتطلع الى التسامي ، بين الانقباض والاشراق . وكل نموذج بهذه الازدواجية يجسد حين سيادته على الآخـر واحتوائه له دورة تاريخية نموذج عربي الترسيـب يسود في دورتـه التعتيمية التغميضية بتراجعها وهزائمها وتطرفها واحباطها ، ونموذج عربي الاسلام يسود في دورته المشرقة المشعة بتطلعاتها وانتصاراتها وسماحتها وابداعهـا .

وجاءت دورتنا المعاصرة بهمومها لتلقي على جسد العربي بفائـض النكبات . من نكبة العثمانيين في خلافة متداعية ، الزم العربي على دفـع جانب من ثمن هزائمها ، الى نكبة الاستعمار بأنيابه ومكره وحيله وخداعه ، وطرحه لمبدأ الفرقة حتى يسود ، وتسخينه للنعرات حتى يفتت ما مزق ، ويوقظ الترسيب الكامن في الاعماق بأطروحات معصرنة ايديولوجيـا ، ومستحدثة منهجيا ، ومبررة علميا ، ولم يجد العربي المسلم الواعي لـه من حصن امام تعدد النكبات الا الاحتماء في « لا شعوره الجمعي » مجسدا في سلف الفتوحات والانتصارات فاستعاد سيادته نسبيا على ذاته ، قبل أن يستعيدها على أرضه ، وهب بصحيته الخالدة « الله أكبـر » معلنـا الجهاد وباحثا عن الاستشهاد مؤذنا ببداية مسيرة المعاناة في عصر تألبت عليه فيه قوى الشر ، من داخل صفوفه اللا وعية والمارقـة ، وعلى يـد اعدائه وخصومه ، وغاص العربي في زمنه التاريخي الدائر يستجمع مـا

تبقى له ، لينهض رغم كل الطعنات والتسط والكيد والخداع وبدا ، بجسده المتوعك يحارب في كل الجبهات ، يحارب من يريد الاستحواذ عليه من داخل ذاته عقليا وفكريا باسم افتعال عصرنته ، وجره الى التسليم بعدم صلاحيته لعصره ، كما يحارب من يستعمر أرضه وينهب خيراته وثرواته ، مستغلا ضعف قواه ، وتوالت عليه الطعنات من داخل وخارج الدار .

ومع هذا فما لديه من اصرار ، وما يتمتع به من صبر فطري نتيجة لمنطلق تعامله ومواجهته لقساوة الطبيعة في صحاريه الممتدة الجرداء بقيظها الحارق ، (لان في داخل كل عربي منا هذه المكنونات الاولى للوراثة وللتراث) جعله قادرا ، حينما يتعامل مع محنه الكبرى كعملاق يتحدى ، كما يصبح مغشوشا ومزيفا حينما لا يستطيع اكتشاف اعماقه وما فيها من مكنونات الصبر والاصرار . لقد فجر الاسلام هذه الطاقة الوراثية ايجابيا ، بعد ان كانت حماسات الجاهلية تفجرها سلبيا ، وبفضلها تحت راية الاسلام تمكن العربي القادر المتطلع من المواجهة وعلى كل الجبلات ، وبتجاهلها سقط العربي القاصر متنكرا في الملذات ...

واليوم كالامس ، نشاهد هذا العربي المتساقط ، كما نشهد صحوة عربينا المسلم وهو يستعيد ذاته من نير الاغتصاب وارضه من ذل الاحتلال، مستجيبا لوجدانه الخالد ، هادرا كما أشرنا من قبل بصحيته التي لا تقهر « الله اكبر » فيتحول جسده الى متفجرات تدمر وتدمر ولكن لا تنهزم ولا تؤسر ، لانه كعقل واعي لا يؤمن بالمهارب ولا يستوحي المبررات ، ولكن يلتزم بالشهادة والجهاد والاستشهاد كما كان أجداده وسلفه الصالح أصحاب رسول الله عليه السلام ...

ونهض عربي الاسلام في القرن العشرين ليقود ويتصدر في الحركات المواجهة للاستعمار فلا ينكر الا جاهل أو جهول ، ان صيحة التحدي كانت تخرج دائما من بيوت الله شعارها « الله أكبر » ، وغايتها الجهاد والاستشهاد . وعرفت مختلف ساحات امتنا في مشرقها ومغربها دم الفداء الطاهر لجسد تكبله السلاسل ، وهو ينزف قربانا لاعلاء راية الامة التي هي راية الله ، كما عرفت بعد ذلك مواكب الوصولين المتاجرين بهذا الفداء ، انها مواكب الشعارات التي لا تلتحم بالارض او تعبر عن الذات ...

وتكثفت المواجهة مع تفجر خيرات العربي من بطـــون ارضـــه في الجزيرة العربية التي تضم بين جنباتها اقدس جسد لانبل رسول عرفتـــه البشرية ، كما تفجرت في بقاع الاسلام ،وحيثما كانت رايته ، من ايران الى بلاد المغرب العربي الى اندونيسيا الى نيجيريا ، وتيقن المتربص بنـــا ان نهضتنا ، مجسدة في صحوة الاسلام لا محالة بالغة اجلها ، ان لم يضع لها المخططات ليوقف مدها ، ويقيم امامها الحواجز ليؤخر سيرها فعوم أرضنا وفكرنا بالاشكاليات المفروضة ،والمفتعلة ، بهدف الاعاقة ، ليرهق جسدنا ويعمي بصيرتنا ، من صهيونية العنصرية لاغتصاب الارض ، الى علمانيـــة القومية لتعتيم العقل ... ويحول معاناة امة خالدة عبر التاريـــخ ، الى مقالة انشائية او قصيدة شعر بألفاظ معصرنة لمضامين مغشوشة ...

ومرت ثلاثون عاما في الوحل لزمن تاريخي متوعك ، ودائر يتكـــرر ليتراجع ، تنوعت فيه الهموم ، وطفى فيه عربي المواسم ليتصدر في بداية الازمات يشعلها ، ويختفي مهزوما أو هاربا حين شدتها ، ومحنها ، وكروبها، متلهيا في متاهاته ينادي بفجره الكاذب لا قدرة له ولا حول . وبقي عربي الاسلام ، عربي الشهادة والجهاد والاستشهاد ، ينتظر فجره الصادق وفي كل يوم يتأكد له ، انه لا فجر لهذه الامة في غيبته ، فلن تستمع الملاييـــن لصيحة الزحـــف الامن مآذنـــه ....

لقد عرفت امتنا نتيجة لهذه المواجهات خلال ثلاثين عاما صراعـــات وصراعات ، صراعات دموية لم نبخل عليها بالـــدم الطاهـــر لابنائنـــا ، وصراعات مزيفة غطت بضبابها ملاحم الاستشهاد وضاع جانب من الارض في ملهاة الزيف ، ونزف الدم واستنزفت العقول في معـــارك التضليـــل وأصبحت المشاكل المصيرية للامة تطبع حلولها بالهواية والارتجـــال . وتلد جانب منا فكر عدونا وحمل شعاراته لينقذنا نانقذ عدونا .

فهذا يتكلم بلغة عصر القوميات ولم لا ، فالغرب في نهضتـــه تمحور حولها وغاب عنه نتيجة للتسرع وعدم الغوص في العمق ، انها افـــرازات لهموم الغرب ومسيرته انطلقت ، في البداية مزكية بعوامل موضوعية ، من تصارع الاقليات مع الجماعات المسيطرة لتشكل اطارا لوطنيات ضيقـــة بانتصارها وتتقولب باسم السيادة والدستور لتصبح دولا ، تتطلـــع الى وطنيات كبرى (من حدة ايطاليا سنة 1859 الى وحدة المانيا سنة 1866-1870 حتى النازية وطموحاتها للوطنية الاوربية ، وحركة البولنجيزم في

فرنسا ...) وخصوصا تجربة الامبراطورية النمساوية الهنغارية التي حاولت خلق وطنية كبرى تجمع توليفيا : التشيكي ، والسلافي ، والسلفاني ، والكرأوني ، في اطار تنظيم سياسي ولكنها فشلت ... وفي عقر دارها ،وقبل ان يقلد المرتجلون عندنا لهذه الوحدات القومية التوليفية المفتعلة التي تلد لتموت .

ثم جاء من يتكلم عن اكتشافه لمعجزة الخلاص لامتنا باسم العلمانية، لقد كان خلاص الغرب بفضل العلمانية فلم تكون لنا ايضا ؟ . لا شك ان الغرب بعد عصوره الوسيطية المظلمة وتحجر العقل في ظل بعض الانسقة الكنسية التي فسرت المسيح (عليه السلام) لحسابها لا لحساب مسيحتيه السمحة ، فعرت الانسان لديهم من عقلانيته ، فلا يكفر الا باذن منها ولا يتكلم الا بحسبان ، والقت به بين سحب التغميض وضباب التجريد وميتافيزيقاته ، عرف ردود فعل مع بزوغ عصر النهضة عندهم وقد اسهم فيه كما هو معروف ومسلم به الآن ، العقل المسلم العربي كمجرد مثال (ابن رشد وما حوله) ردود الفعل هذه تجسدت أولا في تحفظه على سلوك الكنيسة لا على التعاليم المسيحية ، ليحول التحفظ الى نقد ، واعتراض ، وتمرد ، ومعارضة ، باسم العلمانية بمعنى علمنة التعليم والمستشفيات ، واستبعاد الكنيسة من ممارسة السلطة السياسية والادارية ... هذه همومهم .

الف عام لديهم او ما يزيد من عصور وسطية عانى الفكر والعقل فيها من الظلمات آلت الى طرح العلمانية كبديل ، ولكن بالنسبة لنا الف عام او يزيد من عصوره الاشراق وحركة الفكر والعقل ، علوما وفنونا وعمرانا من مشارف الصين الى اعماق اوروبا مارة ببغداد ودمشق ، والقاهرة ، وفاس ، واشبيلية ، وقرطبة ، في ظل الاسلام ، وتفتحه ، وعطائه مد الارض ، وشكل التاريخ ، ووحد اللسان وعبأ الوجدان ، مقومات القومية الحقة التي تتمحور حوله كعقيدة وانتماء وكيان ، وتتحزم بالعروبة اطارا ولسانا . يقولونها علمانية باسم المحاكاة والتقليد بهدف التعتيم والتغميض، ونقولها اسلامية باسم الالتزام ، والتاريخ بهدف الاشراق والتأصيل .

لقد غصت ساحتنا الفكرية المعاصرة ببقايا موائد تجارب الغرب (بشقيه اليبرالي والماركسي) لانقاذنا بالفتات ، وافتعال الاشكاليات ، تاركة جوهر ما حقق الغرب من تقدم علمي مكثف استأنسه تطبيقيا في

تكنولوجيا التصنيع والعمران ، ومنهجيا في تنوع المعرفة وتخصصها وتخصيصها . واقتتنا هذا الفتات لنضيف الى همومنا الموضوعية والمزمنة هموم الدخيل ، ثم هموم حلول ما افتعلناه فأصبح لدينا اشكاليات أساسية نابعة من واقعنا بفقره ، وجهله ، ومرضه ، واشكاليات مفتعلة دخيلة نتلهى بها وتمتص جانبا كبيرا من قدراتنا جسديا وفكريا ، تعلقنا بالفروع والهوامش وتركنا الجذور والاصول ، وغرقنا في مشاكل حلول المشاكل ، فتعددت الحلول ليصبح الحل هو غيبة الحل ... وتوالت هزائم الانسان العربي منطلقة من داخل ذاته ، قبل أن تتسع وتتشعب وتتداخل في هزائم الآخرين له ولامته ودخلنا في عصر العتمة والردة ...

وطرح التساءل العريض كيف وقع هذا ، فكل شيء معطاء في امتنا من مبادىء خالدة الى تاريخ عملاق غني بالبطولات ، الى خيرات تتدفق من تحت الاقدام ، الى شريحة عريضة تشكل الاغلبية من ملايين مؤمنة متطلعة لغد افضل لا تعرف كيف تفتعل الاشكاليات والشعارات والصراعات ، وانما تعرف كيف تلتزم بالشهادة والجهاد والاستشهاد وتقدم بسخاء كل التضحيات . كل شيء معطاء في امتنا لدى هذا العربي المسلم القابع بوجهه السمح المشرق ولكنه ببساطة ما زال في حجرة الانتظار ، مترقبا لوثبته ليختزل بها زمنه التاريخي المتوعك الدائر والمتراجع ، وليعبر بها كما عبر « برليف » في مشرقه ، وكما عبر الصحراء مسترجعا في مغربه وبنفس صيحته المدوية « الله اكبر » الى زمن سابق لزمانه ، مستعيدا لكل ما اخذ منه ، دون أن يفقد ما تبقى له ، هذا العربي المسلم عربي الشهادة والجهاد والاستشهاد هو الذي دحر منذ عصره الاسلامي الاول وفى الوقت المناسب السواقط ، وهزم الجزئيات النفعية ، والترسيبية في داخل ذاته ، مستلهما من الكتاب المنير ، ومستنيرا بالهدى ومتسلحا بالعلم ، في مواجهاته ومجادلاته ولا يتبع الشيطان المريد سواء في داخله أو خارجه ، ولا « يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمئن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه » ... واعيا بكل هذه المضامين القرآنية الخالدة في قوله وفعله ...

هذا العربي الذي يحمل بوضوح ، وتواضع ، ونزاهة ، والتزام ، أمانة امته الاسلامية : في عقيدتها ، وانتمائها ، ووجدانها ، وكيانها ، والعربية في تربتها ومحور أرضها ، وحزامها التاريخي ، ولسانها الموحد ،

سوف يتجاوز بها لا محالة عصر الردة ، كما تجاوزها على عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) محققا الانتصار الاول على رواسب ذاته وارتداده الى شعوبيته ، وحماساته ، وخلفياته ، لينتصر بعد ذلك مهما كانت الظروف ، ومهما بلغت العوائق ، في كل المعارك وعلى كل الجبهات .

دكتور رشدي فكار
استاذ بجامعة محمد الخامس
واستاذ زائر في الجامعات العربية والاوروبية
وعضو مشارك في اكاديمية العلوم بفرنسا